ترجمة

كلمة الأستاذ الدكتور

مـارك ديـفـز

الفائز (بالاشتراك) بجائزة الملك فيصل العالمية

للطب لعام 1415 هـ /1995م

صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز

النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء

وزير الدفاع والطيران والمفتش العام

أصحاب السمو الأمراء

أصحاب الفضيلة والمعالي والسعادة

إنه لشرف عظيم أن أقف اليوم أمامكم هاهنا في مدينة الرياض, وأعتبر نفسي محظوظًا أن أُتيحت لي هذه الفرصة لمشاهدة بلادكم الرائعة, كما يسعدني جدًا أن يشاركني جائزة الطب زميلان بارزان من كندا والمملكة المتحدة وألا تكون جائزة الطب معزولة بل جزءًا من منظومة جوائز سخية تمنحها مؤسسة الملك فيصل في مجالات متنوعة بما في ذلك الأدب وخدمة الإسلام. وهذه تجربة نادرة بالنسبة لي – غير أنها تجيء في محلها فكلنا يسعى وراء الهدف نفسه, وهو البحث عن الحقيقة والعمل على إثراء الفكر البشري. وما أقصده بذلك هو أن الكاتب يسعى لاكتشاف حقيقة النفس البشرية وتصويرها واستشراف المفاهيم الثقافية بينما ينشد عالم الدين الحق والرؤى الصادقة التي تترجم تعالم الدين الى أفعال. ونحن بدورنا نسعى في مختبراتنا للتعلم من حقائق الطبيعة.

فإذا ما قام كل منا بمسؤوليته على النحو السليم أمكننا إثراء الفكر البشري, ثم تأتي الأجيال من بعدنا تبني على أساس ما أنجزناه مثلما نحن بنينا ما بنيناه على أساس إنجازات من سبقونا. لقد قال السير اسحق نيوتن, أحد أعظم العلماء الذين عرفهم العالم خلال الألف سنة الماضية: "إن كنا نحن نرى أبعد ممن سبقونا فما ذلك إلا لأننا تسلقنا على أكتاف العمالقة منهم".

إنني حينما أتأمل حياة الملك فيصل, والذي تُمنح هذه الجائزة على شرفه, أتصور أنه كان مثلنا باحثًا عن الحقيقة في قيادته هذه الأمة, وما أقصده بذلك أنه لم يكن يضع سياسته من أجل أن يصفق الناس له وإنما ليحقق تطلعات المستقبل لبلاده دون مساس بالحقائق الأساسية لدينه وتراثه. لقد كانت حياته أنموذجًا من العمل المضني والتجرد والحيوية. إنه لشرف عظيم حقًا أن أَمنح جائزة تحمل اسمه ولسوف أعتز بها دومًا.

أخلص إليّ القول بأن ما يجمعنا الليلة هاهنا ويربطنا بذكرى الملك فيصل هو البحث عن الحقيقة. فالحقيقة هي الباقية ولن يتقدم الإنسان روحيًا ولا ماديًا إن لم يتمسك بها.

ولكن كيف يمكن بالتحديد للعلم أن يساهم في إثراء الفكر البشري. الإجابة من منظور عملي وفني بديهية جدا. فبالعلم يتحقق التطور صغيرًا كان أو كبيرًا, وسواء في الطب أو العلوم أو التقنية. فعن طريق التقدم الطبي وحده مثلا أمكن إنقاذ حياة عدد هائل لايمكن حصره من الناس, وارتفع متوسط عمر الإنسان, وانخفضت نسبة الوفيات بين المواليد حتى كادت تصبح شيئًا من الماضي. وقد يكون لهذا أثره السلبي على الثقافة لأن التقدم التقني السريع ربما يزداد تسارعًا على نحو يخل بتركيبه المجتمع ويجلب معه كثيرا من الأمور المقيتة مثل التلوث البيئي وأخطار الحروب النووية. ولكن الأفكار العظيمة للفلاسفة كانت لها أيضًا آثارها السلبية مثلما كانت لها إيجابياتها. لذا وجب على القادة في المجتمع أن ينتبهوا لما يجلبه التقدم العلمي والتقني من تغييرات اجتماعية سريعة, وأن يستعدوا لتلافي أية آثار سلبية. بيد أن سلبيات العلم لا تُعد شيئا مقابل ما يساهم به العلم في إثراء الفكر البشري. فالعلم يزيد فهمنا لإنفسنا وللعالم الذي نعيش فيه. فمثلا في مجال العلوم الطبية الحيوية تمكنا خلال الأربعين سنة الماضية من إكمال خطوة مهمة جدا؛ وهي أننا ما عدنا نعتمد على التخمين حول الأشياء بل استطعنا أن نبصر فعلا الكيفية التي تتم بها بعض نظم الآليات التي تنظم حياة الكائن الحي أروع بكثير جدا وأكثر تعقيدًا من أي شيئ كنا نتصوره فيما مضى. هذه الآليات التي أدركناها هي في جوهرها "لوحة فنية حية" لم يصنعها الإنسان وإنما أتيحت للإنسان الفرصة ليكتشفها. في الحقل الطبي الذي أعمل فيه مع زميليّ العظام اللذين أشترك معهما في الجائزة, ألا وهو حقل المناعة, نتعلم كيف يحمي الجسم نفسه من الأشياء الموجودة خارجه كالعدوى بالفيروسات والبكتيريا وغيرها من الجراثيم, وكيف أنَّ بداخل الجسم جيشا جرارا من الخلايا, خلقت كل واحدة منها تحمل جهازًا فريدًا يكشف عن الأجسام الغريبة وكأنه عين ترى. إن كل الأمراض تقريبا

يمكن ردها إلى فشل هذه الشبكة الهائلة من الخلايا في اكتشاف الكائنات الممرضة التي تدخل الجسم وتدميرها بشكل فعال, أو إلى فط في أنشطة هذه الخلايا بحيث يقوم بعضها بتدمير أنسجة الجسم نفسه.

ومع زيادة معرفتنا بطرائق عمل هذه الخلايا في النظام المناعي نزداد ثقة باقتراب اليوم الذي تتوفر فيه عقاقير مصممة خصيصًا لدفع وتنشيط النظام المناعي, أو كبح جماحه؛ وذلك على نحو متقدم كثيرا عما نحققه اليوم بوساطة اللقاحات والمواد الكابحة للمناعة, مستفيدين في ذلك بما نتعلمه في هذا الحقل الطبي إلى أبعد ما يكون.

لقد كانت مشاركتي في هذا الحفل العلمي المثير والسريع التطور تجربة رائعة رغم ما اعترض طريقها من عقبات كؤود وما تطلبه العمل من جهدٍ مُضنٍ. وفي أوقات الشدة بالذات يحتاج المرء لدعم أسرته وتشجيعها. لذا فإنني شديد الإمتنان لمؤسسة الملك فيصل لسخائها في إحضار أسرتي معي إلى هذا الاحتفال متيحة لي بذلك الفرصة لأتقدم أمام جمعكم بالشكر لزوجتي الأستاذة الدكتورة يوسوشين التي لم يكن ممكنا العمل بدون مؤازرتها لي منذ أن التقينا كشريكين وزميلين.كما أنتهز هذه الفرصة لأشكر زملائي في جامعة ستانفورد وفي معاهد الصحة القومية حيث أنجزت هذا العمل وخصوصا أساتذتي العباقرة الذين علموني أسرار العلم والتجربة والاستنتاج وهم الدكتور ب.ي.جونسن والدكتور مايكل بير والدكتور اريك ديفيدسون والدكتور لي روي هود والدكتور وليام بول. فلولا مساعدة هؤلاء الناس لي لما كنت واقفًا أمامكم الليلة.

وأشكركم لصبركم على سماع خطابي الطويل.